إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الرابعة – العدد الرابع عشر – صيف ١٣٩٣ش / حزيران ٢٠١٤م
صص ١١٣ ـ ٨٧

الطقوس البدائية والأنظمة الاجتماعية الأولى؛ قصة "العبد التاجر" فى الباب الثانى من مرزبان نامه أنموذجا

رودابه شاه حسينى*

الملخص

إن حكايــة العبد التاجر الــواردة فى الباب الثانى من كتاب مرزبان نامه تحكى قصــة عبد يمتهن التجارة عبر البحار بأمر من ســيده ويتعرض فى طريقــة لأحداث مميتة يتمكن بدهائه من الخــلاص منها لينال الملك فى نهايــة المطاف. إن هذا العبد يمثل من ناحية البعد الأســطورى لأدونيس وهو يرمــز إلى إله الطبيعة الذى يختار الموت لأجل عباده لتتجدد بذلك الحيــاة؛ وهو من ناحية أخرى يرمز إلى بطل النظام الاجتماعى الأباعد يغترب عن وطنه والذى ينال الملك فى أرض غريبة.

الكلمــات الدليليــة: الملــك، أدونيس، الــروح النباتيــة، رب الغلات، الأباعدية فى الزواج.

---

*. أستاذة مساعدة بجامعة پيام نور، إيران. Roosha11@yahoo.com

التنقيح والمراجعة اللغوية: د. حسن شوندى
تاريخ الوصول: ١٣٩٢/١١/٢٣ش تاريخ القبول: ١٣٩٣/٥/٢٤ش

المقدمة

إن الأسرار التى تتضمنها الأساطير فى قوالبها القصصية شغلت الفكر البشرى طيلة التاريخ. إن ما يظهر فى الأساطير هو عبارة عن الفكر البشرى وسلوكه فى العهود البدائية فى ما قبل التاريخ وعند وصول البشر إلى أعتاب بوابات التاريخ.

تقوم هذه الدراسة بمعالجة إحدى الحكايات التمثيلية الواردة فى الباب الثانى من كتاب مرزبان نامه تحت عنوان العبد التاجر لتقدم صورة واضحة عن المعتقدات والطقوس فى الحياة الاجتماعية للبشر البدائيين والتى تختفى فى ثنايا هذه الحكاية مع إعادة النظر فى رموزها لتقديم تفسير دقيق عنها. وتحاول الباحثة فى هذه العجالة تتبع الفرضيات التالية:

-إن حكاية العبد التاجر وثيقة الصلة بأسطورة أدونيس وهى انعكاس للروح النباتية وربّ الغلات.

-إن حكاية العبد التاجر ذات نموذج يتبع نموذج النظام الاجتماعى المبنى على الأباعدية فى الزواج.

-تتضمن حكاية العبد التاجر رحلة فى الزمان من عهد عبادة الأرواح إلى عهد التوحيد.

سوابق البحث وخلفياته

لقد أولى العلماء منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادى -بعد التطورات التى شهدتها العلوم وبخاصة علم النفس والانتروبولوجيا-موضوع أسلوب حياة الإنسان البدائى اهتماماً كبيراً مركزين على الأساطير بنظرة جديدة.

كما لعب علماء من مثل مانهارد، وتيلور وفنت، وماكس مولير، ودوبويى، وفريزر، وفرويد، ويونغ و... دوراً كبيراً على هذا الصعيد. وقد كان لكتاب "الغصن الذهبى" من تأليف فريزر الأثر البالغ والمهم فى هذا المجال ويمكن اعتباره إلى جانب كتاب الطوطم والمحرمات لفرويد المحاولات الأولى فى مثل هذه الدراسات. والجدير بالإشارة أن الأستاذ الفاضل الدكتور سيد محمد صاحبى قد نشر مقالاً فى صفحتين تحت عنوان "انعكاس طقوس قتل الملك فى مرزبان نامه" مستفيداً من كتاب الغصن الذهبى، حيث

أشـار فيه إلى حكاية العبد التاجر. غير أن هذه الدراسـة تحاول تسـليط الضوء على جميـع القضايا الموجودة في حكاية العبد التاجر بالإضافة إلى الموضوع الذى أشـارت إليه الدراسة الآنفة الذكر. كما تحاول تفسير أحداثها تفسيراً يعتمد على تلك الطقوس لتعليـل رموزها بعد معرفة النماذج القديمة الاجتماعية السـائدة على أجوائها. ولم تعثر الباحثة على أى أثر بحثى آخر متصلٍ بهذه الحكاية وسائر حكايات مرزبان نامه. وقبل الولـوج إلى هيكل البحث أرى من الضرورى توضيـح مصطلح "الروح النباتية" الذى سيواجهه القارئ في ثنايا هذه الدراسة مرات عديدة.

إن المـراد بالـروح النباتية هو الرب الذى كان يمثل في معتقدات الإنسـان البدائى الخصوبـة والنمو. فهو عامـل النمو والاخضرار في النباتات والمـدار الذى تدور عليه الطبيعة. وهو الإله الذى ترتبط حياته بحياة جميع الكائنات من البشـر والحيوانات. إن مصطلح الروح النباتية يرادف في هذا المقال مصطلحات من قبيل: إله النمو وإله الغلات وإله الطبيعة وروح الغلات.

الحضارة والأساطير

تنشـأ الحضارات وتزول بعد ذلك بزوال أو تغيير العوامل المؤدية إلى ظهورها غير أن زوال أيـة حضارة لا يعنى بالضرورة زوال جميع آثارها ومظاهرها حيث إنها تترك بصماتهـا الخفية والظاهرة. ويحوى التاريخ الكثير من الإشـارات والدلالات الظاهرة عـن الحضارات السـابقة كما أن الدلالات الخفية لتلك الحضـارات تظهر في الأقوال والآداب والأساطير عند مختلف الشعوب.

تتضمن الأسـاطير الكثير من المؤشـرات الخاصة بالحضارات البشرية القديمة من مثل الدين والسياسة والتجارة والأخلاق والتقاليد والسنن و ... في صورة الرموز، حيث يمكن للباحث أن يميط اللثام عن رموز وأسرار الأساطير عبر معرفة التجليات الحضارية والثقافية القومية الزائلة والمندثرة لدى الشـعوب. وإن عملية معرفة الحضارات القديمة هذه تسـتخدم الأسـاطير ذاتها إلى جانب سائر القرائن من قبيل المعالم الأثرية لإعادة النظـر في أمـر تلك الحضـارات وإن للعملية هـذه اتجاهين اثنين دون أن تقع أسـيرة

الحلقات المفرغة.

«إن القسم الأعظم من الأساطير يحتوى على معان عميقة كانت فى أساسها ذات أبعاد حقيقية واجتماعية ثم انتقلت إلى أفواه الناس وعقولهم إثر الأعمال البطولية لبعض الأشخاص لتضاف عليها أشياء لاحقاً.» (رضى، ١٩٦١م: ٢/٧٠٥)

إن القطيعة التى تشهدها الأفكار البشرية اليوم عن جذورها الطقوسية والاعتقادية الماضية قد حوّلت إيمان الماضى إلى خرافات اليوم وجعلت سلوك القدماء مجهولة مفعمة بالأسرار، فما يبدو اليوم خرافة كان يظهر فى عين القدامى الإيمان والصدق الحقيقيين. وما نعتبره اليوم رمزياً ومفعماً بالأسرار فى الأساطير كان أسلوباً للحياة الاجتماعية للإنسان فى يوم من الأيام. والتدقيق فى المعتقدات وإعادة النظر فى الحضارات لمعرفتها ولمعرفة أسلوب حياة البشر البدائيين من شأنه أن يكشف الأسرار عن الأساطير ليقود العقول الباحثة عن الحقيقة من الرموز إلى الحقيقة وإلى زمن لا يعدّ فيه العالم الأسطورى أسطورة بل هو عبارة عن نظام اجتماعى حقيقى حيث تتحول المعتقدات الخرافية فيه إلى الحقيقة المطلقة والإيمان الصادق.

عبادة الطبيعة وعبادة الأرواح

كانت الصلة وثيقة بين أسلوب حياة الإنسان القديم ومعتقداته ودينه وظروف بيئته. فقد اختار آلهته الأولى من بيئته وأسس أسلوب حياته وتعريفه عنها على ذلك الأساس «كانت الأساطير والأديان البدائية نتيجة الاختبارات الفكرية الأولى للبشر فى محاولة منه لمعرفة الظواهر الطبيعية وتوضيحها. وهى نتيجة الخوف أو الحيرة الناجمين لدى الإنسان البدائى من التغيرات والتطورات فى الظواهر الطبيعية. كانت آلهة الإنسان البدائى والظواهر الطبيعية وثيقتى الصلة فيما بينهما. فعلى سبيل المثال لم تكن آلهة اليونان سوى تصورات عن العناصر الطبيعية ومظاهرها.» (المصدر نفسه: ٢/٤٠٧) إن تأثير الطبيعة الكبير على مصير الإنسان الضعيف الحائر فى الماضى قد دفعه إلى اعتبار عناصر الطبيعة آلهة وأرباباً. ولعل ذلك ما دفع لوكريتوس الفيلسوف الرومانى يعتقد أن: «الخوف هو الأم الأولى للآلهة.» (ويل دورانت، ٢٠١٢م: ١/٧٢)

أضفى الإنسان عبر نزعته الأرواحية على كل عنصر من عناصر الطبيعة روحاً واعتبرها بين حين وآخر محور الكائنات وفضّلها على الآخرين بجعلها آلهة واقتربت مفاهيم عبادة الأرواح وعبادة الطبيعة في ذهنه وتحولت إلى مفاهيم مشتركة متقاربة.

عبادة الأرواح في حكاية "العبد التاجر"

إن التفسير الذي كان يقدّمه الإنسان البدائي عن الآلهة الأولى "العناصر الطبيعية" تجلى في جزء كبير من الأساطير وسيتسنى تفسير هذه الأساطير إذا ما تمت إعادة النظر في هذه التفاسير لمعرفتها بالكامل. إن حكاية "العبد التاجر" في كتاب مرزبان نامه تمثل العلاقة بين الروح النباتية ومبدأ الطبيعة وتفسير هذا المعتقد في الحضارات الزائلة والثقافات القديمة. بناء على هذا المعتقد فإن الحياة تنبني على محور مبدأ نباتي يدعى رب الغلات أو الروح النباتية. إنه الرب الذي يعتبر روحاً أو حياة لجميع النباتات ويمثل زواله أو حياته زوال الحياة أو استمراريتها وقد تبلور بمرور الزمن بصورة رمزية في أسطورة أدونيس.

الروح النباتية أو رب الغلات

«كانت الروح النباتية تمتاز بقدرتها السحرية على إخصاب الأشجار وإنبات المزارع والحقول لذلك يبدو أن حياته كانت غالية وعزيزه على عابديها وكانت هناك على الأرجح محاذير أو محرمات للحفاظ عليها.» (فريزر، ٢٠١٣م: ٣٣٢)

لا يستبعد أن يكون الاعتقاد بالمبدأ النباتي للحياة و"ربّ الغلات" مرتبطاً بفترة ارتبطت فيها حياة الإنسان بالزراعة والنباتات ارتباطاً وثيقاً. عندما كان زوال النباتات يمثل تهديداً حقيقياً لحياة الإنسان. كما يبدو أن مصدر هذا المعتقد كان على الأرجح المناطق المعتدلة جغرافياً التي تعتبر فيها تغيرات الفصول وتأثيراتها ملموسة جداً على الحياة. وعلى الرغم من تأثير هذه التغيرات على جميع عناصر الطبيعة مثل الحيوانات أيضاً إلّا أن العقل الإنساني توجّه نحو النبات وتركزت ميزة الأرواحية لديه على النباتات والغلات وتصورات الرب في وجود النباتات، ذلك الربّ الذي يمثل الروح في النباتات ويعدّ سبباً لنموها بل هو السبب للحياة الطبيعية والحياة ككل. ولا

يخفى أن الأرواحية وهى من الأجزاء الأساسية للدين البدائى تعد الأساس الذى كان يجعل الإنسان البدائى يرى فى كل كائن حى روحاً أو ربّاً أو قوة مليئة بالأسرار. والذى يدعـى روح الطبيعة أو رب الغلات وهو مبدأ الحياة ومحورها ومنبعها، وكان الإنسـان البدائى يفسر الحياة ويعللها بناء على ذلک تفسيراً يعتمد نظاماً نباتياً. واستناداً إلى هذا التفسير فإن الطبيعة تموت فى كل شتاء وتولد من جديد فى فصل الربيع. إن ولادة الربيع تعـنى ولادة الحياة التى تنبت معها النباتات أى أهم عامل للحياة. ويختفى عامل الحياة هذا داخل "روح الطبيعة" التى تدعى "الروح النباتية" أو "رب الغلات".

الروح النباتية والسحر الهوميوباتى "سحر المحاكاة"

إذا نسـيت الطبيعة الخصوبـة والولادة ومات رب الغلات عند الشـتاء وتأخر عن البعث فإن الحياة يدركها الفساد. وهنا يأتى دور الإنسان لأداء واجبه وهو التوسل عبر مناسک تضمن حياة النباتات وحياة الكون فى نهاية المطاف. «إن الإنسان بعد أن شبه المصدر نفسـه بالنباتات حاول من خلال تنفيذ بعض الأعمال على المصدر نفسه إجبار الطبيعة على القيام بتلک الأعمال.» (رضى، ١٩٦١م: ٢/٥٣٢)

لذلک فإن على روح الغلات أن تموت كل عام بشكل رمزى وأن تحيا بعد موتها مرة أخرى لتذكّر الطبيعة بأن لا تنسى هذا البعث. إن هذا التذكير الذى كان أحد أهم أدوات الإنسـان البدائى العملية للتصرف فى الطبيعة والكون ليس إلّا السحر "الهوميوباتيكى" أو "سحر المحاكاة".

«عندما صنع الإنسـان البدائى المصدر نفسـه عالماً مليئاً بـالأرواح دون أن يعرف ماهيتها الحقيقية ونزعاتها حاول بعد ذلک اسـترضاءها وتسـتمدها فى شؤونه وبذلک أضيف على الأرواحية الخاصة بالأشياء التى هى أصل أصول الدين البدائى عامل آخر هو السحر.» (دورانت، ٢٠١٢م: ١/٧٨)

كان الإنسان البدائى يرى أن جميع نظام حياته يتبع مجموعة من الأسباب والمسببات ليـس لها فى عقل الإنسـان المعاصر وعلمـه أى مكان ولا أى تبريـر. إذ كان يتصرف بواسطة مجموعة من الأعمال السحرية فى هذه الأسباب والمسببات أو كان يقوم بتسريع

النتائج المترتبة على علاقات الأسباب والمسببات هذه. لقد كانت مجموعة أعماله هذه إما سلبية ومستمدة من المحرمات أو كانت إيجابية بقوة السحر.

«إن السحر هو النظام المزور لقانون الطبيعة كما أنه دليل الاتصال الخادع. إذا ما درسنا المبادئ الفكرية التي ينبني عليها السحر لوجدناها تنقسم إلى قسمين على الأرجح:

الأول: إن لكل شئ يصنع ما يماثله وبعبارة أخرى فإن كل مسبَّب يشبه السبب الذى صنعه. والثانى: هو أن الأشياء التى اتصلت فيما بينها سابقاً ستظل مؤثرة على بعضها بعض من بعيد حتى بعد انقطاع هذا الاتصال. ويدعى الأول قانون المماثلة والثانى هو قانون الاتصال أو قانون العدوى.

يستنتج الساحر من قانون المماثلة بأنه يمكنه إيجاد أى مسبّب بمحاكاته وتقليده فقط ويستنتج من الثانى بأنه عندما يقوم بتصرف ما تجاه شئ مادى فإن ذلك سيترك أثراً مماثلاً على الشخص الذى كان على اتصال مع ذلك الشئ فى يوم من الأيام. إن منطق الساحر هو الاستخدام الخاطى لتداعى المفاهيم إن السحر الهوميوباتيكى يحمل هذا الفهم الخاطى وهو أن الأشياء التى كانت على صلة ببعضها البعض فى زمن ما ستظل على اتصال فيما بينها دوماً.» (فريزر، ٢٠١٣م: ٨٧-٨٨) إن السحر المبنى على المماثلة يدعى سحر المحاكاة أو الهوميوباتيك[1]. فعندما يتم وخز هيكل دمية بالإبرة لإيذاء شخص معين وسلبه الراحة أو عندما يتم ربط خيط بعدة عقد لمنع حظّ شخص معين من النهوض، فإن هذا السحر من هذا النوع ولكن السحر المبنى على الاتصال هو ما يدعى السحر المعدى ويتم تنفيذه بطريقة أخرى ومثاله القيام بأعمال معينة على ظفر شخص أو شعره للتأثير عليه هو. كان الإنسان البدوى يتصور أن بلوغه لمراميه فى الطبيعة يتطلب منه القيام بتمثيل ذلك الشئ على شكل المحاكاة "السحر الهوميوباتيكى" ليتكرر أصله بشكل طبيعى فى الطبيعة «كان الإنسان البدائى عند الجفاف وشح المطر يقوم ببعض الأعمال التمثيلية الدالة على نزول المطر ظناً منه أن الطبيعة ستحاكيه ويبدأ المطر بالنزول. كما كان يظن أن جعل أوراق الأشجار والنباتات كزينة على جسده

1. Homeopthic.

سيجعل الأرض تخرج من حالة الجفاف وتبدأ بالحركة الربيعية والخصب والولادة. كما كان يفكر أن قتل الشتاء ودفنه سيؤدى إلى انقضاء فصل وحلول فصل آخر ويكون هو المساعد على ذلک.» (رضى، ١٩٦١م: ٣/٧٩٣) «إن زوال الحياة النباتية فى الشتاء كان فى رأى الإنسان البدائى عبارة عن فتور الروح النباتية ظناً منه أن هذه الروح قد أدركتها الشيخوخة والبلى لذا فإن من واجبه أن يقوّيه ويجدده بقتله وإعادة ولادته فى جسد أكثر حيوية وشباباً لذا فإن قتل مندوب "روح الغلات" فى الربيع مع إحيائه فى شكل إنسان أكثر حيوية وشباباً كان وسيلة لتقوية وتسريع وتيره نمو النباتات.» (فريزر، ٢٠١٣م: ٣٣٨)

الأروح النباتية وحكاية العبد التاجر

فى جانب من هذه الحكاية يتحول العبد إلى ملک ولكنه يدرک شيئاً فشيئاً بأنه سيقتل بعد عام فقد مرّ بأرض كان الناس فيها يختارون كل عام شخصاً غريباً للملک ثم يقتلونه بعد مضى عام ليجدوا بعد ذلک خليفة له. إن قتل الملک وظهور خليفة له يرمزان إلى الطبيعة فإن هذا الملک يمثل فى واقع الأمر ملک الطبيعة الذى يعتبر قتله واختيار خليفة له إشارة إلى انقضاء فصل وحلول فصل آخر محله.

إنه الروح النباتية أو ربّ الغلات الذى يموت ليبعث من جديد فى جسد أكثر شباباً ونضارة. إن التحول التدريجى للأرواحية إلى عبادة الآباء والأجداد وتبلوره فى وجود الإنسان قد خلق آلهة كما أن تدخلات مثيل الإله هذا فى جميع الشؤون الروحانية والاجتماعية قد تمكنت من إيجاد تقارب بين مفاهيم مثل الرب والإنسان والملک. كان الملک رباً يحكم الأرض وينظّم فى الوقت ذاته نظام الطبيعة والكون. لقد كانت له سلطتان إحداهما دينية والأخرى سياسية. «إن فكرة الإنسان- الرب أو الإنسان المتمتع بقوة ربّانية تعود فى الأساس إلى العهود التاريخية الأولى للدين حيث كان الرب والإنسان موجودين من طراز واحد. لقد كان لهذه الآلهة فى بعض الأحيان استخدامات روحانية بحتة فقط وكانت تظهر فى أحيان أخرى قدرة سياسية عظيمة فهى كانت فى تلک الحالة إلها وقائداً وملكاً فى الوقت المصدر نفسه.» (المصدر نفسه: ١٣٢)

إن الروح النباتية أو رب الغلات قد احتفظ باشـتراكاته الربانية مع الإنسان وكان يتجسد في وجود الإنسان- الرب الذى هو الملك، إنه الملك وهو رب النمو وإن قدراته على اتصال مباشر مع قوى الطبيعة إن هذا التفسير النباتى الذى يعد أحد أهم نظريات فريزر يستطيع تعليل الماهية العامة لهذه الحكاية. وهنا لا بأس من إيراد بعض الحكاية ليتم تطبيق وتفسير تفاصيلها بناء على تفاصيل هذه النظرية وآراء سائر العلماء.

"نبذة عن حكاية العبد التاجر"

قيل إن تاجراً كان له عبدٌ ذكى وفطن، حسن الحظ ... قال له التاجر ذات يوم: أيها الغلام لو أبحرت مرة أخرى وعدت لأغنيتك من أموالى ... لقد شـحن الخادم السـفينة وركبها ... لقد بدأت الأعاصير بالهبوب من كل صوب وقلب السفينة ... وغرقت السفينة وجميـع ما فيها فى ورطة العدم لكنه وصل إلى سـلحفاة بحريـة وتعلق بها وركب على ظهرها حتى بلغ بها جزيرة وجد فيها بسـاتين كثيرة من النخيل ... سار عدة أيام وليالى حـتى وصل إلى مدينة .. لقد وجد خلقاً كثيريـن خارجين من المدينة ... كانت أصوات الطبول والمزامير قد دوت فى آذان السماء ... تقدموا نحوه وحيوه وقبلوا الأرض أمامه كالعبيـد ... وقالوا له جميعاً: أيها الملك أنت الملك ونحن جميعاً عبيدك. أنت تأمر ونحن ننفـذ أوامرك لينعم الملـك والعرش بوجودك ... فجلس علـى العرش ... وأعطى كل شـخص منصباً .... لقـد اختار أحد المقربين منه ... وجعله متفوقـاً على جميع أقرانه ... ودعاه يوماً ... وسأله ... أريدك أن تخبرنى عن الحقيقة ... فقال له: أيها الملك اعلم أن أحداً يأتى من هذا الجانب فى كل عام فيحضرونه كما أحضروك ... وعندما يحكم عاماً واحداً ... يأخذونه شـاء أم أبى إلى ضاحية هذه المدينة حيث إن فيها بحراً هائلاً يحول بين المدينة والصحراء فيأخذونه إلى تلك الصحراء ويتركونه كالبهائم الحائرة يهيم على وجهه ويترك هناك فى قلق واضطراب.

خلعـوا عليـه وزينـو ه ومـرّ فى عِـزّ ورفعـة
وكـذاك يفعَـلُ بالجـزو رلنحرهـا فى كل جمعـة

(الوراوينى، ٢٠٠٥م: ١٠٤-١١٢)

وهنا يطرق الملك برأسه متأملاً يبحث عن حل للمشكلة ويرى أن الحل الوحيد هو الاستعانة بهذا الشخص الذى دلّه على الأمر واختيار مجموعة كبيرة من الصناع فى تلك الديار وإيفادهم إلى تلك الصحراء لإنشاء العمارات الكثيرة فيها وتوفير ما يتطلبه الإنسان للعيش وإعمار أراضى الصحراء بإيصال المياه إليها حتى يتمكن من مواصلة حكمه على الناس فى الصحراء بكل راحة وهدوء عندما يتم عزله من ملكه إذ إن تلك الصحراء تكون قد تحولت إلى أرض عامرة.

لقد انقضى عام على ملكه وانتهى حكمه: «فى ذلك اليوم الذى كان يصادف نهاية السنة اجتمع الناس بباب القصر كعادتهم لعزله من العرش ... وأخيراً أخذوه وأجلسوه فى السفينة وأوصلوه عبر البحر إلى الصحراء. عند ذلك قدم الخادمون المستعدون لاستقباله والذين كانوا يترقبون قدومه واستقبلوه فنزل بذلك المكان مرتاح البال قرير العين ليبلغ السعادة فى متنزهات تلك الديار.» (المصدر نفسه: ١١٨)

وفى نهاية الحكاية نجد القاص يستنتج منها نتيجة تمثيلية معتقداً أن لهذه القصة بعداً تمثيلياً وأن رمز هذه الأسطورة موضوع تربوى إذ إنها تعظ الإنسان بأن الدنيا مزرعة الآخرة وأن الفائز هو من لا ينشغل بملذات الدنيا ويعلم أن أفراح هذه الدنيا عابرة فهو يعمل بكل ذكاء على إعمار آخرته.

«والآن أيها الأولاد استعموا وركزوا على تفهم رمز هذه الحكاية واعلموا أن ذلك الغلام الذى جلس فى السفينة هو كالطفل داخل الجنين ... وأن غرق تلك السفينة والوصول إلى تلك الجزيرة وبلوغ المدينة واستقبال جماعة من الناس له إشارة إلى المشيمة التى هى مقر الطفل فى بطن الأم عند الوضع ... فعندما يأتى الإنسان إلى هذا العالم يقوم بتربيته ... الكثيرون من الوالدين والمرضعات ... إذا كان من نصيبه بلوغ السعادة السرمدية ... كما كان من نصيب ذلك العبد فإنه سيفكر ملياً بأن على الذهاب يوماً من هذا المكان ... فلا يفتأ يعمل جاهداً لبناء المنزل الذى سيحتاج إليه فى الدار الآخرة ولا يدخر جهداً لذلك ويعمل على تقديم ذخائر السعادة الأبدية إلى أن يحين أجله ويؤخذ من دار الفرار ... إلى تلك الصحراء التى هى عبارة عن الآخرة.» (المصدر نفسه: ١٢٢)

أجزاء الحكاية وأحداثها

تنقسم هذه الحكاية إلى قسمين ومجموعة من الأحداث في كل قسم وهي قابلة للتفسير في موضعها.

القسم الأول

١. هناك عبد أبجر بعيداً عن وطنه ٢. تنهدم سفينته ويتمكن هو بكل جهد من الوصول إلى جزيرة ٣. إن الجزيرة خضراء مليئة بغابات النخيل ٤. يستقبله أناس بحفاوة ويختارونه ملكا عليهم ٥. يتم عزف الناى والطبول والمزامير عند استقبالهم له ٦. إنهم ينوون قتله بعد عام من الحكم ٧. يأخذه الناس إلى ذلك البحر وعبره يتم نقله إلى صحراء قاحلة ويتركونه هناك ليقضى ويبحثون عن ملك جديد ٨. يطلع العبد بذكائه على القصة ويفكر في حل ينتهي إلى نجاته.

القسم الثاني

١. يقوم القاص بعد نهاية القصة بتقديم تفسير عنها.

٢. إن تفسيره تمثيلي يستفيد فيه من معرفة علاقة الشبه وبعبارة أخرى فإنه يرى القصة كلها تشبيهاً تمثيلياً ٣. إن تشبيه التمثيل هذا يتم توظيفه في خدمة موضوع ديني مهم أخلاقي يتأسس على الفكرة المشهورة القائلة بأن الدنيا مزرعة الآخرة وهنا نورد بعض التفاسير حول أحداث هذه القصة.

وجوب قتل الملك

لقد مر آنفاً أن الملك أو الإنسان- الرب هو مندوب الروح النباتية أو رب الغلات المصدر نفسه فعلى أساس قانون السحر الهوميوباتيكي فإن قتله واختيار خليفة له عامل من عوامل تغيير الفصول وقدوم الربيع ونمو النباتات ولكن السؤال الذي يطرح المصدر نفسه هو أنه لماذا على ملك الطبيعة هذا أن يقتل؟ لماذا لا يترك ليموت ميتة طبيعية ليخلفه شخص آخر؟ لقد كان الجواب الذي توصل إليه فريزر عبر دراسة القرائن الكثيرة التي حصل عليها حول هذا التقليد في أماكن متعددة من الأرض هو أن

قتل الملك كان محاولة لمنع نقص الخصب والقدرة على الولادة. لابد من قتل الملوك فى ذروة الشباب والصحة والقوة لتنتقل قواهم قبل الضعف إلى شخص أكثر شباباً وقوة. «إن البشر البدائيين كانوا يعتقدون أن صحتهم بل وصحة العالم مرتبطتان بالإنسان- الرب هذا أو التجسيد الألوهى عبر الإنسان. لذلک فإنهم كانوا يراقبون صحته لأجل صحتهم. غير أن أية دقة مهما كانت كبيرة لن تتمكن من منع الشيخوخة والضعف والموت للانسان- الرب. فإذا مات الإنسان- الرب ميتة طبيعية فإن ذلک يعنى عند البدائيين أن روحه قد تركت الجسم بإرادتها ولن تعود بعد ذلک أو المعتقد الأكثر رواجاً هو أن الشيطان أو الساحر هما اللذان أخرجاها من جسده وجعلاها حائرة على أقل تقدير. كما أن الموت الناجم عن المرض يعنى أن الروح تكون قد تركت الجسم فى أسوأ مراحل الضعف الجسدى فإذا انتقلت إلى جسد جديد فإنها سترافقه بالضعف والفتور لتواصل حياتها على هذه الحالة بينما كان اعتقاد الناس يقضى بأن قتله يضمن لهم فى المرحلة الأولى السيطرة على روحه عند الهروب ويمكنهم نقلها إلى خليفة مناسب وفى المرحلة الثانية فإن قتلهم له يعنى أنهم سبقوا ضعف قواه الطبيعية مما يعنى أن زوال الإنسان- الرب لا يؤدى إلى زوال العالم.» (فريزر، ٢٠١٣م: ٢٩٥)

إن الاعتقاد السائد هو أن الروح النباتية يجب ألا تموت وألا يدركها الضعف والبلى لذلک فإن الإنسان- الرب مادام قادراً على أداء واجباته الخطيرة فإنه يحب أن يبقى على مسؤوليته.

لقد أثبتت دراسات فريزر أن تحديد الأقوام البدائية للزمن الذى تنتهى فيه صلاحية الإنسان- الرب لمواصلة الحكم كان مختلفاً. فهناک من كانوا يقتلونه بمجرد ظهور الشعرة البيضاء الأولى على رأسه وكان البعض الآخر منهم لا يقتلونه مادام قادراً على الدفاع عن المصدر نفسه وعندما كان يظهر شخص قادر على قتله فإن منصبه كان يتحول إلى قاتله. غير أن أكثر النماذج تشير إلى فترة محدودة من الحكم للملک. إن الزمن المحدد هو ذلک الزمن الذى كان يعتقد الإنسان البدائى أن القدرة على حفظ الروح الالهية فى وجود الإنسان- الرب أو الرب- الملک ممكنة حتى نهايتها. ويبدو أن تحديدهم لهذا الزمن الخاص حسب معتقداتهم مرتبط بفترة زمنية لدورة من الكمال فى الحياة.

«إن الملك أو الكاهن السماوى مجبر على البقاء على الحكم إلى الوقت الذى يظهر فيه نقص جسدى فى ظاهره أو علامة ظاهرة من الضعف والمرض أو الشيخوخة. إن ظهور أى ضعف إشعار بأنه لم يعد قادراً على أداء مهامه الإلهية. و يبدو أن بعض الأقوام كانت لا تنتظر ظهور أمارات الضعف والشيخوخة وكانت تفضل قتل الملك عند قدرته وفى ذروة حيويته. لذا فقد كانت حددت فترة لم يكن فيها الملك ممنوعاً من مواصلة الحكم وكان لابد من قتله. لقد كانت هذه الفترة فى بعض المناطق جنوبى الهند تستمر لمدة ١٢ عاماً.

وفى العصور السحيقة ما قبل التاريخ كان ملوك بابل وأسلافهم المتوحشة بعد انتهاء عام واحد من الحكم يتخلّون عن الملك وعن حياتهم بالكامل.» (المصدر نفسه: ٣٠٥-٣١٣) إن أبسط تعليل لتحديد فترة عام واحد هو الإشارة إلى أكثر التعليلات انسجاماً مع الطبيعة وهى نهاية دورة كمال للفصول الأربعة. كما أن معتقدات البشر البدائيين حول العدد ١٢ جديرة بالاهتمام. فهو العدد الذى يتميز بالتقديس على خلاف العدد الذى يليه. «لقد كان العدّ فى بداية الأمر يتم عبر أصابع اليد ومن هنا ظهرت الأعشار. فعندما استطاع الإنسان فهم معنى العدد ١٢-ولعله كان بحاجة إلى فترة من الزمن للوصول إلى ذلك- أدركه الكثير من السرور إذ إنه وجد عدداً قابلاً للقسمة على خمسة إلى ستة من الأعداد الأولى وبذلك دخلت الأعشار منذ ذلك الحين مبنية على العدد ١٢ فى الحساب. إن العدد ١٣ ليس قابلا للقسمة على أى عدد خلافاً للعدد الذى يسبقه ولذلك فقد تشاءم به الناس وكرهوه.» (دورانت، ٢٠١٣م: ١/٩٦)

تتويج شخص غريب ملكا

لقد كان مفهوم الملك الممزوج بمفهوم الرب يضع على عاتق الملك مسؤوليات صعبة ومنهكة فلم يكن الملك مستبداً بالمفهوم الذى نعرفه اليوم إذ كان الملك يعيش لأجل ديمومة حياة الكائنات الحية وكان يحتاج إلى المراقبة الدقيقة إذ إن قدرته على التصرف فى الكون والطبيعة كانت تتطلب منه أن يخضع جميع تصرفاته للمراقبة الشديدة. «إن أى تصرف للملك -حركة رأسه- أو رفع يده- كان يترك تأثيراً على الطبيعة وكان

مــن الممكن أن يثيرها.» (فريــزر، ٢٠١٣م: ٢١٥) لذا فإن جميع آعماله وحركاته كانت تخضع للحظر الشــديد وكان هذا الحظر على حركاته تتم مراقبته بشــكل جاد بواسطة عابديــه ومن كانــوا يراقبونه بصورة مشــددة. فهو كان ممنوعاً من وضــع رجليه على الأرض كما كان محظوراً عليه أن يرى أو يرى ومن ذلک منع -إشــراق الشــمس على رأســه- منع حلق لحيته أو ظفره منع النوم ومنع الملامسة أو منع ملامسة أحد إياه و ... إن هــذه الأنواع المتعددة من الحظر هى ما يصفه فرويد بمحرمات الملک. «إن محرمات المراســم الحكومية فى ظاهرها تعكس تجليات أعمق الاحترامات كوسيلة لتوفير الأمن الكامل للحاكم غير أنها فى واقع الأمر عقاب يتحمله الحاكم لعلو شأنه.إن شدة وقسوة أحكام المحرمات قد أدتإلى نتيجة مهمة تاريخياً وهى أن الرغبة فى بلوغ الحكم قد زالت بالكامل.» (فرويد، ١٩٧٢م: ٧٣) إن عدم الرغبة هذا الذى أدى إلى زوال الحياة تحول إلى عامل فيما بعد ليتم تنصيب الملک رغم إرادته ويفرض عليه هذا المنصب فرضاً.

«فى بعــض القبائل الأفريقية كانــوا يلقون القبض على من يريــدون تعيينه كخليفة للســلطان أو يربطونه بالحبال ويراقبونه فى دار الأصنام ويستمرون فى حبسه حتى يعلن عــن اســتعداده لقبول هذا المنصب ويعــترف به.» (المصدر نفســه: ٦٨) وكانت إحدى الحلول تعيين الغرباء والأجانب ومن لا يعرفهم أحد لهذا المنصب. «كان الملوک الأوائل مــن الأجانب الذيــن يتم تقديمهم كقرابين للآلهة فى احتفــالات ضخمة بعد فترة قصيرة من الحكم. إن الامتناع عن قبول منصب السلطان كان يتبعه عقاب شديد جداً مما أدى إلى أن تقبل أكثر القبائل بتســليمه إلى الأجانب.» (المصدر نفســه: ٧٤-٦٨) «لقد صوّر ســرفانتس فى روايته "دون كيخوتى" حال إنسان غريب غافل عن كل شئ يجد المصدر نفســه فجأة فى مواجهة القدر ويصبح ملكاً ومن ثم كان يتعرض لأسوأ الأحداث وأكبر المشــاق والصعاب التى عرضهــا فى قالب فكاهى رائع.» (راجع ســرفانتس، ١٩٧٠م: ٢/١٠٩٣) غير أننا نشــاهد فى الأساطير والقصص القسم الأول من هذه الطقوس دون ذكــر نهايتها المخيفة. ففى الأســاطير الإيرانية نواجه نماذج من هــذا القبيل حيث إن البطــل عندما يتوجــه نحو مكان معين لإنجاز عمل ما فى طريقة فى الجبال أو الصحارى يبلغ مدينةويختاره الناس فــوراً ملكا عليهم.«ففى منظومة "همای وهمايون" لخواجوى

كرماني نرى أن هماى الأسـير في سفينة سمندون الزنجي التي تعرضت بدورها للأعاصير الشديدة مما أدى إلى غرق سمندون وأصحابه غير أنه يتمكن من الخلاص بتلك السفينة المحطمة ويبلغ جزيرة خضراء ويبدأ فيها بالسـير ويواصل سـيره فيها في اليوم التالي إذ يواجه عدداً من الفرسـان الذين يبحثون عن ملـك لبلادهم بعد وفاة ملكهم وكان من تقاليدهـم أنهم يذهبـون إلى الصحراء ويختارون أول شـخص يواجهونه ملكاً لبلادهم وبذلك يتحول هماى إلى ملك لتلك البلاد.» (راجع خواجوى كرماني، ١٩٦٩م: ٤٥-٤٢)

تتويج العبد ملكاً

إن أسـطورة حاكم مروج معبد "نمى" الذي تركزت حوله دراسات فريزر عبارة عن أسـطورة كاهن في منصب السـلطان. لقد خلف هذا الكاهن الملك الذي قتله وكان من يسـتطيع قتله سـيتحول إلى ملك أيضاً. والطريف في الأمر أن الوحيد الذي كان يسمح له بهذا الصراع من أجل بلوغ الحكم كان عبداً هارباً. «كان يجب ألا ينكسر غصن من أغصان المعبد وكان يسـمح لعبد هارب فقط بكسر أحد الأغصان -إذا استطاع ذلك- وكان نجاحه في هذا الأمر سيمكّنه من أن يواجه كاهن المعبد وينازله فإذا تمكن من قتله أصبح حاكما على تلك المروج بدله.» (فريزر، ٢٠١٣م: ٧٤)

«كمـا أن مـن كان يريد أن يصبح كاهنا في معبد آرتميـس كان عليه أن يتغلب على منافسـه في الصراع وجهاً لوجه وكان يمنع الناس من الأحرار المشـاركة فيه إلا العبيد الهاربين من أسيادهم.» (المصدر نفسه: ٢٥) كان على خليفة الملك أن تتوفر لديه شروط خاصة وأن يثبت جدارته عبر اختبارات تتطلب الشـجاعة والقوة القتالية التي هي من أمارات الصحة والقوة الجسـدية. إن السـبب في ضرورة اجتياز الاختبارات الجسدية الصعبة واضح تماماً. كان على العابدين أن يتأكدوا من صحة ملكهم وقدراته الجسـدية لأداء المسؤولية الكبيرة الملقاة على عاتقه. «إن الحكام المقدسين كانوا يمثلون المندوبين الأحيـاء للآلهة وكان يجب أن يقتلوا على يد رجـل ذي عزيمة كبيرة والذي كان قادراً على إثبات أحقيته في الألوهية والحكم المقدس بقوة الجسـد بواسطة السيف.» (المصدر

نفسه: ٢١٢) غير أن تبرير كون القاتل عبداً هارباً يبدو أنه راجع إلى أمرين الأول مسؤولية الملك التى لم يكن أحد ليقبلها والثانى هو مفهوم الرق فى العهود القديمة. لم يكن العبيد خدماً قبيحى المنظر ضعافاً أشقياء فحسب، لقد كان المصارعون الرومان عبيداً أيضاً وكان ذلك هو السبب الذى يدفعهم إلى تحمل التدريبات الشاقة الخاصة بالقتال ونيل مهارات الدفاع الفردى وكان القانون الوحيد فى حياتهم التى كانت وسيلة لترفيه الملوك الرومان هو "اقتل لكى تعيش". إن قصةسبارتاكوس خير شاهد على هذا الأمر لذا فإن أى عبد لم يكن يصلح لبلوغ منصب الكاهن لكنه كان عبداً ذا قوة جسدية عالية ومهارات قتالية خارقة وذكاء خارق أيضاً يمكّنه من الهروب من مدرسة المصارعين التى كانت خاضعة للمراقبة الشديدة ولأن هذا الهروب كان يتبعه عقاب الموت إذاً فإن فترة من الحكم فى أرض أخرى كانت تمثل له فرصة جديدة. إن هذا الهروب من الهلاك وتولى الحكم الطقوسى فى بلاد أخرى مشهود فى أسطورة ديانا أيضاً. «إن هروب العبد إعادة انعكاس لهروب "اورست" وكان صراعه مع الكاهن يرمز إلى الضحايا الذين كان يتم تقديمهم للإله "ديانا" فى عصور سابقة فحسب هذه الأسطورة فإن بطلاً يدعى "اورست" سنّ عبادة "ديانا" فى "نمى" فقد هرب بعد قتل الحاكم إلى إيطاليا مع شقيقته وأخذ معه إلى هناك تمثال ديانا.» (المصدر نفسه: ٧٤)

إن حكاية العبد التاجر أسطورة عبد يصبح ملكاً فهو لم يهرب غير أن ابتعاده عن أرضه يجعل سكان الجزيرة قادرين على تصور الهروب وإن لم يكن مصارعاً رومانياً غير أن اجتيازه للبحر وخلاصه من الأعاصير والغرق يثبت قدراته الجسدية فإن من يتمكن من اجتياز بحر هائج كهذا فهو قادر لا محالة على الاحتفاظ بقدرة الملك المقتدر.

اجتياز البحر

إن العبد يدخل الجزيرة عبر البحر ومن المقرر أن يقاد نحو القتل عبر البحر مرة أخرى ولا بأس هنا من الإشارة إلى البحر ووجود الساحل فى تلك الأرض وهى قضية نشاهدها فى القصص الأخرى المماثلة. مثل "همای وهمایون".

إن هذه الدراسة تسعى إلى تقديم تفسير طقوسى عن هذه الحكاية ولكننا لا نرى

بأسا بإشارة إلى التفسير الرمزى لها أيضاً:

فكمـا ذكر القـاص –وفهمه عن هذا الرمز يثير عندنا العجب– فإن تحطم السـفينة والسقوط فى الماء رمز الولادة والخصب وهو رمز قديم كثر استعماله فى قصة داراب فى شاهنامه و فى قصة موسى وكثير من القصص الأخرى. «مما لا يرقى إليه الشک هو أن وضع الطفل الرضيع فى سلة،ما هو إلا عرضاً استعارياً للولادة فالسلة هنا ترمز بالمجاز إلى بطن الأم والماء هو السـائل الجنينى ففى كثير من هذه التخيلات نلاحظ أن تصوير العلاقة القائمة بين الأم والأولاد يتم عرضه عبر إخراجهم من الماء أو الخلاص والنجاة منه.» (فرويد، ١٩٦٩م: ٦)

فعلى أسـاس التحليـل الرمزى فإن اجتياز العبد للبحر يعـنى عبوره من العدم إلى الحيـاة كمـا أن عودته إلى البحر يمكن أن تكون رمزاً للعـودة من الحياة إلى العدم وإن الذهـاب والإياب يمثلان مجموعة الـولادة والموت لملک من الملـوک أى دورة الموت والبعث لإله الخصب.

غير أن التحليل الطقوسى الذى تهدف الدراسة إلى معالجته وتشكل أساس تفسيرنا هنا فالسـباحة واجتياز الماء وتسليم الشـخص إلى الماء و ... يعود بجذوره إلى السحر الهوميوباتيكى الذى يسعى إلى التأكد من مستوى هطول الأمطار وتوفير المياه للزراعة. «كان تقليد السباحة أمراً شائعاً فى الشمال الأفريقى.» (فريزر، ٢٠١٣م: ٣٩٠)

كما أن تقليد السـباحة كان شـائعاً فى إيران فى يوم يدعى "آبان". كما أن مراسـم طقوس "أدونيس" الذى سـنتحدث عنه لاحقا عبارة عن مراسـم تقام بواسـطة مفهوم الموت وبعث أدونيس عبر البحر أو النهر.

إن أدونيس الذى يرمز إلى رب الغلات والروح النباتية كانت تقام كل عام بمناسـبة موته مراسـم العزاء ومن ثم كانت الاحتفالات تقام مرة أخرى بسـبب عودته. «كانت النسـاء يزين تماثيلأدونيس ويقمن بتشـييعه فى موكب جنائـزى كأنهن يقصدن دفنه ثم كـن يرمينه فى البحر أو النهـر ليحتفلن فى اليوم التالى بعودته.» (المصدر نفسـه: ٣٨٣) وفى طقـوس مماثلة كان يتم إلقاء جذع شـجرة فى الماء بدل تمثال أدونيس. «إن الفارق بين الطقوس على الشـكل الأول والثانى هو أن الثانى كانـت تظهر فيه الروح النباتية

فى شــكل جذع الشجرة "نبات" أى فى شــكله الأصلى. بينما كان للروح النباتية شكل انسانى فى عبادة "أدونيس". إن موت أدونيس وبعثه يمثلان زوال الحياة النباتية وولادتها الجديدة.» (المصدر نفسه: ٣٩٢)

إن خــروج العبد من الماء وعبوره منه نحو الصحراء للهلاك والموت يشــبه إلى حد كبير قصة أدونيس فهو يمثل الموت والبعث لرب الغلات بالهدف المصدر نفسه أى هطول الأمطار وتوفير المياه الكافية للزراعة والتوســل إلى الســحر الهوميوباتيكى. «لقد كان الإنسان الأولى يعتقد أن المحاكاة تترك التأثيرات التى يريد الوصول إليها لذا فإنه كان يرش الماء ويريد به الحصول على المطر ويشــعل النار ويريد به إشراق الشمس كما أن محاكاته لنمو المحاصيل كانت تجعله يأمل فى وفرة المحاصيل. كذلک فإن إلقاء النباتات أو التماثيل ســحر يمارس للتأكد من كثرة الأمطار ووفرتها.» (المصدر نفسه: ٣٩١) كما أن الملــک كان يجب أن يتمتع بقوة الخصب وإنزال المطر. "لذلک كان يدخل تلک الأرض عبر المياه" كما كان يجب قتله قبل أن تضعف قواه. وأن يعود إلى الماء مرة أخرى وذلک لضمان هطول الأمطار والزراعة المثمرة.

الناى والطبل والمزمار

لقد تم وصف مراســم الاســتقبال على النحو التالى:كان الضجيج على أشده وكانت تستخدم الطبول والمزامير والناى وكان الناس يحملون الأعلام و ... كانت هذه المراسم تبدو للوهله الأولى مراســم اســتقبال عسكرية،سياسية وكان يظنّ بأنها تجرى من فرط السرور. لقد ورد ذكر أدوات اللهو أيضاً غير أن عبارة «صوت الناى الحزين لا يتناسب مع هذه الأجواء المفعمة بالســرور أو الأجواء العسكرية. ويبدو للباحثة من خلال هذه الأســطر أن هذه الأجواء المليئة بالسرور عبارة عن أصوات تعكسها: لقد اجتمع خلق كثيرون من الرجال والنساء من المدينة وهم يحملون أدوات اللهو والفرح وأنواع وسائل التبرج والتجمل.» (الوراويــنى، ٢٠٠٥م: ١٠٦) كما أنها تعكس حالة الحرب والخوف الناجمــة منهــا «لقد ضرب زلزال المواكــب الأرض وحمحمة المراكب عنان الســماء.» (المصدر نفسه: ١٠٦) كما أن "صوت الناى الحزين" يحدث حالة من الحزن والألم. «إن

صوت الناى الحزين وصوت الطبل والمزمار قد طنّ فى آذان الفلک ...» (المصدر نفسه: ١٠٦) ترى الباحثة أن كتاب مرزبان نامه رغم كونه يتصف بالاهتمام بالمحسنات الأدبية غير أن ما تضمنته هذه الأسطر لا ينحصر على التلاعب اللفظى والأدبى فحسب بل إنه يرتبط بماهية القصة الأساسية "الموت والبعث".

إن هناک قرائن تشير إلى التشابه الموجود بين هذه الأوصاف وبين طقوس أدونيس ومراسم الحصاد فى الأدوار الماضية. انظر إلى حالة النواح والإنشاد فى هذا النموذج: «كان سكان الاسكندرية يرتدون ملابس العزاء فى طقوس أدونيس ويشعّثون شعرهم ويعرّون صدورهم حاملين تمثال أدونيس الميت إلى شاطئ البحر ويسلمونه إلى الأمواج. غير أن نواحهم وحزنهم لم يكونا نابعين من اليأس إذ إن المنشدين كانوا يشيرون إلى الجميع بأن الإله الميت سيعود.» (فريزر، ٢٠٠٥م: ٣٨٤) إن الثنائية الموجودة فى هذا الكلام وكذلک صوت الناى الحزين المفعم بالألم تظهر فى النص التالى أيضا: «كان الفينيقيون يقيمون الحداد على موت أدونيس فى كل عام بصوت الناى الحزين والبكاء والمآتم واللطم على الصدور ولكنهم كانوا يعتقدون بأنه سيعود غداً حياً.» (المصدر نفسه: ٣٨٤)

أما الشواهد الأخرى فتأتى من مراسم خاصة بالحصاد إذ نشاهد فيها النواح بينما ليس هذا الموسم موسماً محزناً بل هو باعث على الفرح والسرور: «فى مصر القديمة كان الحاصدون عند حصاد المحاصيل الأولى الزراعية ينوحون داعين الإله الذى كانوا يعتبرونه السبب فى اختراع الغلات وكانوا يعتبرون ألمصدر نفسهم مدينين له. كما كان الفينيقيون وسكان غربى آسيا ينشدون غناء محزناً عند قطف العنب.» (المصدر نفسه: ٤٨٣) وفى النهاية فإن هذا الضجيج والأصوات والأعلام التى تم ذكرها فى هذه الحكاية يمكن أن تقارن بالنموذج الآتى: «إن السكان المحليين فى مكسيكو يضربون بأكفهم على شفاههم ويضجّون و يربطون مناديل حمراء كالأعلام على العصى ويحملونها وذلک فى موسم الحصاد أو عند حرث الأرض.» (المصدر نفسه: ٤٨٩)

نود هنا الإشارة إلى هذه الثنائية الموجودة بين الخوف والأمل والفرح والحزن الذى نشاهدها فى هذه المراسم علّنا نجد ارتباطا بينها وبين الأوصاف التى ورد ذكرها

فى مرزبان نامه عن مراسم الاستقبال لنقوم بتفسيرها جميعاً على محور الماهية العامة للاعتقادات الخاصة بالموت والبعث والروح النباتية وبتجسيدها فى القتل وخلافة الملك. كانوا يقيمون الحداد على الملك الميت ويفرحون مستقبلين الملك الجديد كما أنهم كانوا يعتقدون عند موسم الحصاد وإجراء طقوس أدونيس أن روح الغلات هى التى تموت وتبعث من جديد.

«إن روح الغلات تقتل فى كل عام عند مكان درس المحصول وفى موسم الحصاد إن النواح على أدونيس كان فى أساسه نوعاً من طقوس الحصاد التى كانت تقام لجلب عناية رب الغلات.» (المصدر نفسه: ٤٩٧-٣٨٨)

إن بالإمكان أن نضيف تبريرين آخرين لمراسم الاستقبال هذه: إن التبرير الأول هو مراقبة روح الغلات وتوجيهها. لقد كانت معتقدات الإنسان البدائى حول الأرواح مبنية على الخوف والهلع الشديدين الناجمين عن محرمات الأموات. فهو كان يعتقد أن الروح معرضة لأخطار مخيفة. إذ من الممكن أن تغادر الروح الجسد وألا تعود إليه. كما أن من الممكن أن تخضع لسيطرة الشيطان أو الأرواح الخبيثة الأخرى وقد تضيع وتحتار و ... لذا فإن من الضرورى توجيه الروحومراقبتها بواسطة السحر، كان اعتقادهم يقضى بأن الصراخ والعويل والضجيج والأناشيد والأغانى وربط الميت بالحبال عند الموت بإمكانه أن يوجه الروح نحو المكان الذى يجب أن تتجه نحوه.

لذلك فليس من المستبعد أن نتصور أن روح الغلات عند قتل الملك تحتاج إلى المراقبة والتوجيه للاستقرار فى مكانه الآمن الخاص به للبعث المجدد إذ يجب أن تكون بعيدة عن الضياع.

«أ "لأجل إعادة الروح الحائرة" كان يتجه جمع غفير من الرجال والنساء إلى الجبّانة وكان الرجال يعزفون الناى هناك، أما النساء فكن يصفّرن فى محاولة لإعادة الروح الحائرة ويوجهونها بالضرب على أكفهن.» (المصدر نفسه: ٢٣٥) كما أن على روح الغلات أن تبقى بعيدة عن سيطرة الأرواح الشيطانية وتسخيرها. «إن تنفير الروح بالصراخ والضجيج أسلوب سحرى.» (بروید، لاتا: ١٩)

أما التبرير الثانى فيتم عبر السحر الهوميوباتيكى. إن محاكاة الرعد والبرق عامل

مــن عوامل هطول الأمطار كما أن صوت المزامير والطبول و ... يدفع الفلك إلى إيجاد الرعد والبرق وهطول الأمطار.

النخيل

إن ارتباط النخيل بالخضرة والنضارة في الأرض المقصودة قابل للفهم إزاء الزراعة والتبرير النباتي الذي هو محور هذه الحكاية. غير أن الإشــارة إلى اسم النخيل بين هذه النباتات بشــكل خاص لا يخلو من الارتباط بينهــا وبين الموقع الجغرافي الذي ظهرت فيــه فكرة الموت والبعث والروح النباتية وطقوس قتل الملك. «كانت الضحية الجديدة التي يتم اختيارها للعام التالي يعبد كظهور مجدد للضحية الســابقة في الطقوس البدائية. وكانت هذه العقيدة بسبب المقارنة والتشبيه بينه وبين الربيع حيث كان إله الأرض يبعث بعد موت خريفي مرة أخرى لقد كانت أسطورة الموت والبعث للإله على شاكلة الإنسان جزءاً لا يتجزأ من جميع الأديان في غرب آســية والشمال الشــرقي للقارة الأفريقية.» (دورانت، ١٩٧٠م: ٤١٧) «ويبدو أن التضحية أو بتعبير آخر تضحية الإله بالمصدر نفسه في كل عام كانت من ميزات المذاهب السامية.» (فرويد، ١٩٧٢م: ٢٠٦)

بالإضافــة إلى ما مرّ فإن طقوس أدونيس التي تعتبرتجســيداً لهــذا المعتقد في قالب الأســطورة تعد شــاهدة على ذلك. «إن أدونيس في الأســاطير اليونانية هو معشــوق افروديته فبعد موته وافقت الآلهة على أن يبعث ستة أشهر من السنة وذلك بإصرار من أفروديته. لذلك فقد كان اليونان يحتفلون سنوياً في احتفالات آدونيا بموته وبعثه اللذين يرمزان إلى موت الطبيعة وحياته السنوية.» (مصاحب، ٢٠٠٢م: كلمة أدونيس) «ويبدو أن هذه الطقوس كانت تقام في الأراضي الواقعة شــرقي البحر الأبيض المتوســط أكبر وأضخم من أي مكان آخر. كانت الشعوب في مصر وفي غربي آسية يقيمون الاحتفالات بزوال الحياة وبعثها سنوياً بتجسيم إله كان يموت في كل عام ويحيا من جديد وذلك تحت أسمــاء من مثل ازيريس وتموز وأدونيس وآتيس كانــت أسماء هذه الطقوس وتفاصيلها مختلفــة عن بعضها البعض من مــكان إلى آخر غير أن ثيماتهــا وموضوعاتها الأصلية كانت واحدة.» (فريزر، ٢٠١٣م: ٣٥٩) والمهم أن نعلم «أن أدونيس كان معبود الشعوب

فى بابل وفى سـوريا واستعارهاليونان منهم فى القرن السابع قبل الميلاد. غير أن هناك قرائن تشير إلى أن عبادة أدونيس قد ظهرت لأول مرة بين السومريين.» (المصدر نفسه: ٣٥٩) ولا يخفى ما بين هذه البلاد والنخيل من ارتباط وثيق. ونكتفى هنا بالإشارة إلى أن أنشـودة شجرة آسوريک التى هى من الآثار الباقية من ايران ماقبل الإسلام عبارة عن مناظرة جرت بين ماعز ونخله وكان الماعز يمثل المجتمع المعتمد على تربية المواشى حسب رأى بعض الباحثين كما أن النخلة كانت تمثل المجتمع الزراعى.

إنقاذ العبد

ترى الباحثة أن تبرير وتفسـير حكاية العبد التاجـر يتطلبان النظر إليها من ثلاثة منطلقـات. الأول النظـر إلى القصة من منطلق الأرض الـتى يغادرها العبد ويدخل فى قضايا وردت تفاصيلها فى الحكاية وتسمى الباحثة هذه الأرض "أرض البطولة".

الثـانى النظـر إلى القصة من منطلـق الأرض التى يدخلها العبد وتسـميها الباحثة "أرض الضحية".

والثالـث النظر إلى القصة من منطلق وجهـة نظر الراوى الذى ينظر إليها بعد مضى زمن طويل ويقوم بتفسير أحداثها وتطلق الباحثة عليها اسم أرض الراوى.

يتسنى تفسير وتبرير الأحداث الواقعة فى أرض الضحية عبر التفسير الطقوسى كما أن تبرير أحداث أرض البطولة ممكن بتفسير رمزى لها أما تفسير أحداث أرض الراوى فممكن من خلال تفسيرها التمثيلى.

وجهة النظر من منطلق أرض الضحية

لقد قدم غريب عبر المياه إلى هذه الأرض ويبدو من ملامحه بأنه رب الغلات وملک الطبيعة ويحمل معه روح الملک السـابق الذى تم إطلاق روحه من جسـده قبل وصول هـذا الغريب لذا فإن على الجميع إكـرام هذا الملک ومراقبته ليحفـظ الروح النباتية والقوة الملكية معه وعندما يحين موعد نقل الروح فإن الملک العزيز سيقدم ضحية. حتى تنتقل روحه فى صحة دون أى إنهاک أو تعب إلى جسـد آخر وتواصل حياتها هناک.

ولكـــى يتم ضمان هطـــول الأمطار فإن التضحية تجرى عبر البحر ويســـلم الضحية إلى البحر. هذه هى الأحداث من منظور الأرض التى نزل إليها العبد وهى أرض الضحية.

أما النظر إلى القصة من منطق أرض البطولة؛ يغادر البطل مدينته ويبتعد عنها ويواجه فى طريقه الأخطار التى تحدق به حيث يتمكن بقوته الجســـدية من الخلاص عن الغرق ويدخل أرضاً غريبة ويشـــاهد فيها أناســـاً عجيبين بســـلوك يبدو له غير مفهوم حيث يولّونه ملكا عليهم أولاً ويريدون قتله بعد ذلك بفترة وجيزة.

عندما يدرك العبد هذه المسألة بذكائه الخارق يرى المصدر نفسه فى معرض الهلاك وينقذ المصدر نفسه هذه المرة من الموت المحتم بتدبير الأمر وحزمه غير معتمد على قوته الجسدية حيث يعتمد على ذكائه وعقله وأخيراً يقاد إلى أرض كان من المقرر أن يهلك فيهـــا غير أنه بعقله قـــد حوّلها إلى مدينة عامرة وتخلص للمـــرة الثانية من الموت المحتم وأصبح ملكا على تلك الديار.

إن تفســـير الحكاية من وجهة نظر أرض البطولة تفســـير رمزى وتابع لنموذج كثير المصاديـــق فى الأســـاطير الإيرانية القديمة وغير الإيرانية منهـــا. يبتعد البطل عن أرضه ويصبـــح فى نهاية المطاف ملكاً. إن ابتعاد البطل عن أرضه ووصوله إلى الملك فى أرض غريبـــة أخرى انعكاس للنظـــام الاجتماعى الأباعدى أو الزواج خـــارج القبيلة. «إن الأباعديـــة أو الانتســـاب إلى المرأة قانـــون يلزم الرجل بالزواج مـــن قبيلة غير قبيلته إن الملـــك رجل مـــن قبيلة أخرى وعلى الأرجح من مدينـــة أخرى أو حتى من عنصر آخـــر. كانـــت بناته يبقين فى المنـــزل وكان أولاده عندما يكـــبرون يخرجون نحو الآفاق وكانوا يتزوجون و يقيمون فى بلاد زوجاتهم.» (المصدر نفسه: ٢٠٦) فى نماذج الأساطير المتأخرة المتأثر بدورة الانتقال من الأباعدية والانتساب إلى الأم "الأقاربية أو الزواج داخـــل القبيلة" فإن تطوراً يحصل فى مصير البطل حيث يقوم البطل الذى كان عادة ابن الملك بالاســـتيلاء على ابنة ملك من أرض أخرى ويعـــود بها إلى أرضه فيصبح ملكاً على أرض الأب وفى بعض الأحيان على أرض الأب وأرض الزوجة معاً.

إن خـــروج البطل من أرضه والوصول إلى الملك فى أرض غير أرضه، الذى يترافق مع زواجه من ابنة الملك أحياناً يعد نموذجاً شـــائعاً فى الأســـاطير الآرية القديمة حيث

تكرر بأشكال مختلفة فى القصص. والنقطة المهمة هى أن وصول الأولاد إلى الحكم فى أرض الأجانب ووصول أزواج البنات إلى الحكم فى أرض الأجانب أيضاً قد شهدا نماذج كثيرة فى التاريخ القديم لهذه الأقوام. «ففى أثينا وروما نجد نماذج من جلوس العرش بسبب الزواج من ابنة ملك ففى لاتيوم القديمة كانت الأسر الحاكمة ترسل أبناءها للزواج من بنات الملوك للوصول إلى الحكم فى تلك البلاد. إن أكثر من فرع واحد من العنصر الآرى كان لديه مثل هذه التقاليد. ونلاحظ فى كثير من الروايات اليونانية أن ابن ملك يغادر أرضه متجهاً نحو أرض بعيدة ليتزوج من ابنة الملك هناك ويبلغ الملك فيها.» (المصدر نفسه: ٢٠٨) «بذلك يبدو أن بعض الأقوام الآرية كانت ترى فى مرحلة معينة من انتقالها نحو التطور الاجتماعى أن النساء وليس الرجال هن اللاتى ينقلن الدماء الملوكية. إذ كن يعتبرن قادرات على نقل الحكم فى أجيال متتالية إلى رجل من قبيلة أخرى أو من بلد آخر فى الغالب حيث كان يتزوج من إحدى بنات الملك وكان يحكم قوم زوجته. إن القصة المتداولة بين الناس التى تقول إن رجلاً غريباً دخل مدينة وعشق ابنة الملك وتزوجها واستطاع الحصول على نصف الحكم أو الملك كله قد تكون نتيجة وجود تقليد حقيقى فى المجتمع.» (المصدر نفسه: ٢٠٩)

على أساس ما تقدم فإن بطل الحكاية التى نحن بصددها هو بطل النظام الاجتماعى الأباعدى الذى ابتعد عن أرضه وبعد اجتيازه للاختبارات الصعبة "اختبار القوتين الجسدية والعقلية" ينال الحكم فى أرض أخرى. إن محاربة الأعاصير فى البحر ومواجهة أناس عجيبين فى الفكر والإشراف على الهلاك ... من منظور أرض البطولة يأتى جميعاً لاختبار البطل. على البطل أن يواجه مشاكل وأخطاراً جمة فى طريقه وأن يجتازها بسلام مستعيناً بشجاعته وعقله ليتم إثبات جدارته لنيل العرش. ويتدرب على الأمور الشاقة فى سبيل بلوغ هذا المنصب الخطير.

إن مثل هذه الاختبارات البطولية انعكاس لاختبارات نيل العرش فى العهود الماضية عندما «كان يتم نيل حق الزواج مع ابنة الملك أو الملكة والجلوس على العرش "انظر إلى هاتين الأمارتين المتعلقين بالنظام الأباعدى" من خلال إجراء مباراة.» (المصدر نفسه: ٢٠٩)

خلاص العبد

تـرى الباحثة أن وجهة النظر الأصلية في القصة هـي وجهة نظر أرض البطولة. إن جميع أجزاء هذه الحكاية تروى لنا منذ البداية وحتى النهاية من أرض البطولة.

إن البطل سـيتخلص من دون شـك. فعلى أسـاس القرائن المتعددة الموجودة فإن الملك لا يترك على حاله في طقوس قتل الملك ليموت جوعاً وعطشاً بل تتم التضحية بـه وبعـد أن يقتل، ترش دماؤه علـى الأرض أو تجرى عليها ولكـن بالنظر إلى رواية الحكايـة جميعاً من أرض البطولة ففي طقوس أرض الضحية تضاف إلى القصة صحراء قاحلة حتى يوجد طريق للخلاص لكي تزداد القصة رمزية أيضاً.

إن الصحراء هي رمز للهلاك فالبطل الذي يستطيع تحويل رمز الفساد إلى رمز الحياة وأن يحول الموت إلى الحياة لاشك في أنه يستحق الجلوس على العرش أكثر من غيره.

منطلق القصة من وجهة نظر الراوى

لقد انقضت سـنوات عدة وأخفت السـنوات الطويلة أسـس الطقـوس ومفاهيمها وتركت بقية منها في الأسـاطير إن الأسـطورة التي نقصدها هنـا انتقلت عبر الأجيال ومرت سـنوات تطور العبادة المتعددة "عبادة الأرواح وعبادة الأجداد وعبادة الطوطم و ..." وفي كل عهد اتسمت بسمات عصره حتى وصلت إلى راوى هذه الحكاية في عهد التوحيد -الذي يتزامن مع تطور الثقافة والحضارة البشـريتين- لم يكن راوى الحكاية مطلعاً على الرحلة الأسـطورية التي كان يرويها وكان يظن أن لهذه الأسـطورة منشداً يفكّـر مثله وهو يرى الجيد والقبيح كمـا يراه ويؤمن بما يؤمن به هو. ومن هذا المنطلق فـإن ما ذكره القدامى كان بالضرورة نابعاً عن الحكمهفحـاول جاهداً بأدواته المجردة والتركيز على قاعدة التشـبيه أن يجد في هذه الأسـطورة قضايا حكمية. فساعده ذوقه الفـني وقدرته على التصوير ودقة نظرة أن يجعل أسـاس حكايتـه مبنياً على أحد أهم الأركان الدينيـة التوحيدية التي ترتبت عليها اكثر المنجزات التربوية والأخلاقية على أساس تقنية التشبيه وأن يتوصل إلى نتيجة مفادها أن هذه القضية الحكمية هي الإيمان بالآخرة. ظاناً أن أسـلوبها التربوى هو الاسـتفادة من التدريب التمثيلي. لقد خيل إلى

الراوى أنّ منشد هذه الأسطورة قد لجأ إلى الرمز لنقل أمر تربوى إلى المخاطبين واستخدم أداة التشبيه المعقدة وكانت هذه الأدوات فى ظنه فى خدمة الموعظة وقضية تربوية وهى أن «على الإنسان أن يبنى الآخرة فى هذا العالم وأن يكسب السعادة الأخروية فى هذه الدار الفانية.» (وراوينى، ٢٠٠٥م: ١٠٤) إن هذه الأسطورة من منظور الراوى عبارة عن استعارات للموت والحياة الأخروية التى استطاع عقل المنشد الوقاد أن يخلق فيها علاقات التشابه وأن يضعها فى خدمة الأخلاق كواعظ ناصح.

النتيجة

إن قصة العبد التاجر أسطورة مرت بمرحلتى ماقبل التاريخ وما بعده. إن مرحلة ماقبل التاريخ هى التى حدثت فيها أحداث القصة. أما مرحلة مابعد التاريخ فهى الفترة التى وصلت فيها الأسطورة إلى الراوى فحاول إماطة اللثام عن رموزها وأسرارها. إن المرحلة الأولى هى مرحلة الاعتقاد بالطقوس البدائية غير أن معتقدات المرحلة الثانية توحيدية. تمرّ القصة فى المرحلة الأولى بموضعين جغرافيين مختلفين لكل واحد منها نموذجهالمختلف عن الآخر. فالمكان الأول يعكس النظام الاجتماعى الأباعدى ولكن المكان الثانى يمثل الطقوس المتعلقة بالموت والبعث والروح النباتية كما أنها تعكس أسطورة أدونيس. إن النموذج الأول نموذج اجتماعى شائع فى الأساطير الآرية ولكن النموذج الثانى طقوسى ويعود بجذوره إلى المعتقدات السامية. إن مقابلة النموذجين المختلفين قد خلقت فى هذه الأسطورة عقدة أسطورية. إن التحديات القصصية تظهر عادة فى الأساطير عبر مواجهة الفروق. ويمكن لهذه الفوارق أن تكون ناجمة عن الفروق بين الأرضين أو البلدين "التضاد الجغرافى" أو ناجمة عن الفوارق الموجودة بين قوميتين "التضاد القومى" كما يمكن أن تكون ناجمة عن الفوارق التى تظهر بمرور الزمن "التضاد التاريخى". حيث توجد فى قسم من الأسطورة الطقوس الخاصة بفترة زمنية معينة وفى قسم آخر منها الطقوس الخاصة بفترة أخرى حيث يخلق التضاد بين هذه الفترات العقدة القصصية. إن ارتباط نموذجين مختلفين فى الحكاية من القوميتين الآرية والسامية اللتين كانتا فى تضاد مستمر بينهما جدير بالاهتمام والعناية. يبدو أن القسم الأول من الحكاية

هو الجزء الأساسى من الأسطورة والتى تم نقلها شفوياً أما القسم الثانى من الحكاية فقد أضيفت عليها بواسطة صاحب ذهن وقاد فنّى ذى نزعة عظيمة متطابقة مع المنطق واستفاد منها لصالح التربية والأخلاق.

إن حسن الصدف بين ماهية هذه الأسطورة الطقوسية أى الموت والبعث وإله الطبيعة الذى يجهله الراوى بالمطلق وانطباعاته التمثيلية من هذه القصة بهدف التذكير بالموت والبعث الإنسانى أمر جدير بالاهتمام أيضاً.

كذلك عندما يدرك العبد أنه سيقتل بعد سنة من الجلوس على العرش فوراوينى يورد بيتين يذكر فيهما "الجزور" التى هى نوع من الأضاحى أيضاً ويبدو أن هذه الصدف تدل دلالة واضحة على المشتركات الذهنية لدى البشر فى دائرة الكون.

المصادر والمراجع

خواجوى كرمانى. (١٩٦٩م). هما وهمايون. تصحيح كمال عينى. ط١. طهران: بنياد فرهنگ ايران.

دورانت، ويل. (١٩٧١م). لذات فلسفه. ترجمه عباس زرياب خويى. ط٢. طهران: فرانكلين.

دورانت، ويل. (٢٠١٢م). تاريخ تمدن. ترجمه احمدآرام، ع. پاشايى، اميرحسين آريانپور. ط١٥. طهران: علمى وفرهنگى.

رضى، هاشم. (١٩٦٤م). تاريخ اديان. ط١. طهران: كاوه.

سروانتس. (١٩٧٠م). دن كيشوت. ترجمه محمد قاضى. ط٢. طهران: نيل.

فرويد، زيگموند. (١٩٦٩م). موسى و يكتاپرستى. ترجمه قاسم خاتمى. ط١. طهران: پيروز.

ـــــــ (١٩٧٢م). توتم و تابو. ترجمة محمدعلى خنجى. ط٢. طهران: كتابخانه طهورى.

فريزر، جيمز جورج. (٢٠١٣م). شاخه زرين. ويرايش ومقدمه رابرت فريزر. ترجمه كاظم فيروزمند.ط٣. طهران: آگاه.

مصاحب، غلامحسين. (٢٠٠٢م). دايرة المعارف فارسى. ط٣. طهران: امير كبير.

وراوينى، سعدالدين. (٢٠٠٥م). مرزبان نامه. به كوشش خليل خطيب رهبر. ط١١. طهران: صفى عليشاه.